دور الدراسات الأنتروبولوجية الاستعمارية في تفكيك البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري

إعداد الأستاذ: كوسة نورالدين

أستاذ الأنتروبولوجيا بجامعة فرحات عباس- سطيف-

مقدمة:

لقد سعت السلطات الاستعمارية منذ 1830 وبالتوازي مع الحملة العسكرية الهادفة إلى احتلال الجزائر، إلى توظيف الدراسات الانتروبولوجية بغرض معرفة عادات وتقاليد وأعراف المجتمع الجزائري، سعيا إلى فهم بنية المجتمع قصد السيطرة عليه، وتحقيق الهيمنة الكاملة على ثرواته ومقدراته، وذلك من خلال استغلال التقارير والدراسات الانتروبولوجية المنجزة من قبل العسكريين والموظفين في الإدارة الاستعمارية، وكذا بعض الدراسين المرافقين للحملة العسكرية.

وفي الإطار تأتي هذه المداخلة لفهم إسهامات المدرسة الأنتروبولوجية الاستعمارية في الجزائر، من خلال علاقة الانتروبولوجيا بالاستعمار الحديث بشكل عام، هذا الأخير الذي اجتاح مناطق واسعة من العالم في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وهيمن على شعوبها، ثم الحديث عن موقع الأنتروبولوجيا متخصص علمي قائم بذاته ضمن المخطط الاستعماري، وعلاقة التلازم بينهما – الأنتروبولوجيا والاستعمار – ثم الانتقال إلى إثارة موضوع مكانة الأنتروبولوجيا ضمن مشروع الاحتلال الفرنسي للجزائر، بداية بالحديث عن التضارب الحاصل في توظيف المصطلحات، باستعراض الأسباب والخلفيات التي تقف وراء ذلك، مرورا بإيضاح خصوصيات الدراسات الأنتروبولوجية الفرنسية ومظاهر اختلافها وتميزها عن الأنتروبولوجيا البريطانية.

وننتهي إلى استعراض مساعي وأدوار الدراسات الأنتروبولوجية الاستعمارية في تفكيك البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري، من خلال صياغة نظريات وإعطاء تفسيرات جديدة عن المجتمع خدمة للتوجه الاستعماري، بهدف دمج المجتمع الجزائري بشكل نهائي، وخلق قطيعة بينه وبين هويته وانتماءاته الاجتماعية والدينية، وعزله عن مصادر ثقافية، مع استعراض أهم الرؤى التي أصبغتها الدراسات الأنتروبولوجية الاستعمارية عن المجتمع الجزائري،

استعراض أهم الرؤى التي أصبغتها الدراسات الأنتروبولوجية الاستعمارية عن المجتمع الجزائري، ورصد أخطارها وتداعياتها في تفكيك البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع، والتي تعد من ضمن المظالم المرتكبة في حق المجتمع الجزائري وخصوصياته الثقافية والاجتماعية.

1) الأنتروبولوجيا و الاستعمار الحديث

لا شك أن السؤال الجوهري الجدير بالإثارة ضمن هذا السياق هو: لماذا أُعتبرت الأنتروبولوجيا من أشهر العلوم التي وظفت لتحقيق غايات استعمارية خالصة ؟ و كيف تم ذلك ؟ .

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي منا تتبع الموجة الاستعمارية الحديثة التي اجتاحت مناطق واسعة من العالم منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، إذ يتضح لنا أن الأنتروبولوجيا كانت من بين العلوم الأساسية التي وظفت لخدمة الأهداف الاستعمارية " و من هنا لا يبدو غريبا على الإطلاق أن تترافق فترة ازدهار بعض العلوم الإنسانية و منها الأنتروبولوجيا، مع فترة التوسع الغربي أولا ثم الأمريكي تاليا باتجاه آسيا و إفريقيا و أمريكا الجنوبية و أستراليا " [1]

غير أن القول بأن الأنتروبولوجيا قد تم توظيفها لخدمة غايات استعمارية ، لا يعني بأي حال من الأحوال بأنها العلم الوحيد الذي أسهم في تدعيم المد الاستعماري و المساعدة في الهيمنة على الشعوب ، بل هناك علوم أخرى و قد وظفت لتحقيق نفس الغاية ، و لكن لم تحض بنفس الشهرة التي حضيت بها الأنتروبولوجيا .

و لعل في مقدمة الأسباب التي جعلت الأنتروبولوجيا تستغل في خدمة الغايات الاستعمارية إنما يكمن في طبيعة الدراسة الأنتروبولوجية في حد ذاتها ، على اعتبار أن مصطلح الأنتربولوجيا و الذي يعود إلى الأصل اليوناني [2] عبارة عن كلمة مركبة من مقطعين هما :(أنتروبوس Anthropos) و معناه الإنسان ، و (لوغوس Logos) و معناه العلم أو الدراسة ، و لذلك فإن المعنى النهائي لمصطلح الأنتروبولوجيا هو علم الإنسان أو دراسة الإنسان .

غير أن المفارقة الأساسية التي يمكن رصدها في هذا السياق هي وجود تشابك و تقاطع بين اهتمامات الدراسة الأنتروبولوجية من جهة و الأهداف الاستعمارية من جهة أخرى ، لكون إحدى أساسيات البحث الأنتروبولوجي تكمن في دراسة الآخر ، أو ما يعرف " بالبحث عن الغيرية Altérité " . [3]

إن المقصود بالآخر حسب الرؤية الأورو أمريكية هي الشعوب غير الغربية التي خضعت للاستعمار ، ووفق هذا السياق فإن الاستعماريين حاولوا من خلال الدراسات الأنتروبولوجية فهم الخصوصيات الثقافية و الاجتماعية و التركيبات الإثنية و العرقية للمجمعات المراد السيطرة عليها ، بغية تسهيل التغلغل و إثارة الفتن و الصراعات ، و من هذا المنظور فقد شجعوا الأبحاث " للقيام بدراسة ظاهرة التثاقف و عملية تأثير الثقافة الغربية على الدول المستعمرة ، و محاولة معرفة درجة التأقلم أو المقاومة للثقافة المستوردة من طرف المستعمر " [1] .

و لعل هذا ما جعل المتصفحين للكتابات و الدراسات الأنتروبولوجية يلمسون ذلك التلازم بين الأنتروبولوجيا و التوجهات الاستعمارية ، و هكذا فقد تضمنت أغلب الكتابات إشارة إلى هذه الجدلية أي التلازم بين الأنتروبولوجيا و الاستعمار [2] ، مما جعل أحد السمات الأساسية المهيمنة على ذهنية كثير من الدارسين اعتبار الأنتروبولوجيا علم يخدم مصلحة المستعمر أو علم استعماري بامتياز [3] .

2) الأنتروبولوجيا ضمن مشروع الاحتلال الفرنسي في الجزائر

أ) قراءة في المصطلح :

إن من الملاحظات التي تسترعي الانتباه عند تتبع موقع الدراسات الأنتروبولوجية الفرنسية ، ضمن مشروع الاحتلال الفرنسي للجزائر ، هو وجود تداخل بين مصطلحات أساسية و هي السوسيولوجيا الكولونيالية ، و مصطلح الإثنوغرافيا و أخيرا مصطلح الأنتروبولوجيا ، غير أن هذا التداخل يعود إلى سبب أساسي و جوهري و يتعلق بالخلفية الأكاديمية للفرنسيين ، حيث تأخرت الأنتروبولوجيا في فرنسا عن نظيريتيها بريطانيا و الولايات المتحدة الأمريكية، نظرا لهيمنة ما عرف بالمد السوسيولوجي – علم الاجتماع – في فرنسا [4] .

و تكمن الخلفية الأكاديمية في اعتقاد الفرنسيين أنهم رواد في علم الاجتماع، و تكفيهم المدرسة السوسيولوجية إذ " لم تعرف الأثنولوجيا في فرنسا ، حيث ولدت كما عليه إنطلاقتها إلا في وقت متأخر ، و يعود للفلاسفة السوسيولوجين – المفكرين – الفضل في إكسابها حق الاندراج في الجامعة منذ منعطف القرن " [1] – العشرين – ، و يعود للباحث الفرنسي " مارسيل موس " الفضل في تأسيس ما عرف بمعهد الإثنولوجيا في فرنسا منذ سنة 1927 [2] ، و ما تجدر الإشارة إليه أن حب الفرنسيين للتميز عن نظرائهم في بريطانيا و

الولايات المتحدة الأمريكية جعلهم يميلون إلى تسمية الإثنولوجيا عوضا عن الأنتروبولوجيا كتسمية معتمد لدى الأمريكيين و البريطانيين ، رغم إن كلا المصطلحين يأخذان نفس المعنى و نفس التوجه العلمي تقريبا .

و ما دامت الأنتروبولوجيا في فرنسا قد تأخرت عن الظهور كمفهوم أكاديمي و كتخصص علمي مستقل بذاته حتى سنة 1927 ، فإن هذا لا ينف وجود كتابات ذات طابع أنتروبولوجي في فرنسا خلال الفترة السابقة عن سنة 1927 ، غير أن هذه الكتابات كانت واقعة تحت هيمنة علم الاجتماع ، أو بالأحرى كانت موجودة تحت المظلة السوسيولوجية ، و لذلك نلمس التضارب في توظيف المصطلحات لدى الدارسين ، خلال الحديث عن الدراسات الفرنسية للشعوب الأخرى ، فمنهم من يميل إلى تسميتها " بالسوسيولوجيا الكولونيالية " [3]، و منهم من يسمها بالإثنوغرافيا تارة و بالإثنولوجيا تارة أخرى [4] و منهم من يسميها بالأنتروبولوجيا فقط [5] .

و لإزالة اللبس الموجود في المصطلحات – الإثنوغرافيا ، الإثنولوجيا ، الأنثروبولوجيا – يكفي الاستدلال بما أورده الباحث الفرنسي كلود ليفي ستروس بقوله : " لا تشكل الإثنوغرافيا و الإثنولوجيا و الأنثروبولوجيا ثلاثة فروع علمية مختلفة ، أو ثلاثة تصورات مختلفة لنفس الدراسات إنها في الواقع ثلاث مراحل أو ثلاث لحظات في البحث نفسه ، و تفضيل هذا التعبير أو ذاك ، إنما يعكس فقط إنشداد الانتباه ناحية نمط من الأبحاث دون استبعاد النمطين الآخرين مطلقا " [6] .

فالإثنوغرافيا أو المونوغرافيا هي مرحلة الوصف المباشر للوقائع الاجتماعية أما الإثنولوجيا فهي مرحلة المقارنة، في حين أن الأنتروبولوجيا هي المرحلة الأخيرة أي التحليل ، و ما تجدر الإشارة إليه أن الدراسات الأنتروبولوجية الاستعمارية قد غلب عليها الطابع الإثنوغرافي أو المونوغرافي ، على اعتبار أنها تميزت بتجميع الوثائق و المعلومات الأولية ، و الصور ، و المعطيات الاجتماعية و الثقافية من خلال الاحتكاك المباشر بالمجتمع المدروس [1] .

ب- **قراءة في التوجه والخصوصيات:**

إن الحديث عن الدراسات الأنتروبولوجية الفرنسية، وإسهاماتها في خدمة التوجه الاستعماري في الجزائر، يقودنا إلى إثارة نقطة أساسية تتعلق بمعرفة التوجه العام الذي يطبع تلك الدراسات- الأنتروبولوجيا الفرنسية- من خلال خصوصياتها ومميزاتها، ويمكن إدراج في نقطتين أساسيتين:

1- أن معظم الدراسات منجزة من قبل الضباط والإداريين التابعين للمؤسسة العسكرية

لعل أهم ميزة طبعت الدراسات الأنتروبولوجية الفرنسية في الجزائر خلال المراحل الأولى من الاحتلال، أن معظمها أنجز من قبل ضباط عسكريين أو موظفين تابعين للمؤسسة العسكرية، وتميمن على كتاباتهم ذهنية العسكري وليس المثقف[2] وكانوا بفعل انتمائهم إلى المؤسسة العسكرية، غير متخصصين في الدراسات الاجتماعية بشكل عام[3] ولم تظهر الكتابات والدراسات للمتخصصين إلا في مرحلة لاحقة.

2- تميزها بالطابع الوصفي أي الإنتوغرافي

نظرا لتجميعها وتكديسها للمعلومات عن المجتمع الجزائري في كل المجالات دون تمحيص أو تحليل، لأن الهدف هو معرفة خصوصيات المجتمع قصد السيطرة عليه[4]، فهدف الدراسات هو تسهيل الاحتلال، ومعرفة نقاط الضعف وليس البحث العلمي البريء أو معرفة المجتمع كفضول[5].

3)- مساعي المدرسة الأنثروبولوجية الاستعمارية في الجزائر

وقد تمت هذه المساعي من خلال إقامة مدرسة أنثروبولوجية استعمارية قائمة بذاتها،وذلك من خلال انتهاج خطوتين أساسيتين أما الخطوة الأولى فهي: السيطرة والاستحواذ على كل ما له صلة بالتاريخ الجزائري من مخطوطات ووثائق والتي كانت موجودة بالدواوين والإدارات التي تم الاستيلاء عليها، إلى جانب نهب أغلب المكتبات الموجودة بالزوايا بما تحويه من كتب ومخطوطات مهمة وثمينة تتعلق بالتراث الديني والثقافي للمجتمع الجزائري.

أما الخطوة الثانية فهي: صياغة نظريات وإعطاء تفسيرات جديدة لخدمة التوجه الاستعماري، بهدف دمج المجتمع بشكل نهائي من خلال خلق قطيعة بينه وبين هويته وانتماءاته

الاجتماعية والدينية، وعزله عن مصادر ثقافته، ويمكن إدراج أهم الرؤى التي أسبغتها المدرسة الأنثروبولوجية الاستعمارية على المجتمع الجزائري في النقاط التالية:

أ- على المستوى الاجتماعي

- رمي المجتمع الجزائري بالتوحش[1]:

لا يمكن لأي متصفح للكتابات الأنثروبولوجية خلال الفترة الاستعمارية، وعلى وجه الخصوص خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلا أن يلاحظ تلك النزعة العنصرية التي تسيطر على هذه الكتابات، والتي ترمي أفراد المجتمع الجزائري بالتوحّش والجهل وتنفي عنهم صفة التحضّر، بل تحاول إيجاد تبريرات وحجج للممارسات الاستعمارية، بكونها تهدف إلى جلب الحضارة والرفاهية لهذا المجتمع المتخلف؟!، وإلحاقه بركب التطور وعصرنة مؤسساته الاقتصادية والاجتماعية؟!.

ب- إثارة النزعة العرقية (ثنائية عربي قبائلي)[2]:

إن إثارة النزعة العرقية أو ما عرف أحيانا بالأطروحة البربرية وأزمة الهوية والانتماء، يعد أخطر المساعي والتوجّهات التي سعت إليها المدرسة الأنثروبولوجية الاستعمارية لخدمة أهداف خطيرة وغير بريئة، عملا بمبدأ "فرق تسد"، ولقد كان لإثارة ثنائية عربي - قبائلي في الكتابات الأنثروبولوجية الاستعمارية نتائج سلبية وآثار لا يستهان بخطورتها، لا يزال المجتمع الجزائري يجني ثمارها ويكتوي بأبعادها التي تهدد الكيان والشخصية الوطنية في الصميم[3].

ج- على المستوى الثقافي:

- عزل المجتمع الجزائري عن موروثه الروحي(التدين الصحيح)[1]:

إن من الفرضيات الأساسية التي كان المستعمر يسعى إلى تحقيقها ميدانيا من خلال الكتابات التاريخية والانثروبولوجية، تلك الفرضية القائلة بأن الدين الإسلامي لا يمكنه أبدا مواكبة العلم والتطور، أي أن الدين الإسلامي مناهض للمدنيّة[2]، على اعتبار أن أخطر ما أتّضح لهؤلاء الباحثين أن الإسلام هو سر المقاومة وأنه مادام متأصّلا لدى المجتمع الجزائري لن يكتب الدوام للاستعمار[3]، حيث استغلت الإدارة الاستعمارية بذكاء فائق القائمين على الطرق الصوفية ورجال الدين وكذلك شيوخ الزوايا، لما يتمتع به هؤلاء من نفوذ روحي وتأثير عميق وفعّال على فئات المجتمع الجزائري، حيث تم استغلال ظاهرة الأولياء والمرابطين لضرب

الإسلام، بالإضافة لاستعمال هؤلاء كوسطاء بين الإدارة العسكرية الفرنسية والأهالي.[4]

إن تصفّح ما كتب عن الإسلام كدين وعن الجزائريين كمتدينين به يتّضح حجم المؤامرة والمحاولات الجادة لخلق القطيعة بين الإسلام كدين صحيح والمجتمع كممارس له، مع محاولة إبراز شكل جديد من التديّن المبني على الخرافات والأباطيل والدجل والشعوذة، وهذا باعتراف فيليب لوكا وجان كلود فاتان، بأن الهدف الخفي وغير المعلن من وراء ذلك هو:" إشاعة الرؤيا المنافية للقيم المعترف بها"[5] أي الإسلام الصحيح.

وعلى اعتبار أن المؤسسات الدينية والمتمثلة بالدرجة الأولى في الزوايا، كانت تمثل القلب النابض والمحرك الأساسي للمقاومة ضد الاستعمار من جهة،كما تمثل الركيزة المحورية المؤطرة للعلاقات الاجتماعية، والتكوين والإعداد التعليمي والتربوي، فقد عملت الأنثروبولوجيا على الكشف عن الدور المحوري للزوايا بغرض عزلها عن أداء دورها الروحي والتعليمي ولتحقيق ذلك "استلزم الأمر الدخول إلى الزوايا وتشريحها من الداخل للكشف عن خباياها وتسليط الضوء على شبكة العلاقات الداخلية والخارجية، وهذا ما يساعد على وضع خارطة بيانية لانتشار الزوايا وأنماط تنظيمها، ومن ثم " التمكن من تفكيك قوتها العسكرية الكاملة ونفوذها السياسي"[6].

الخـــــاتمة:

في نهاية مداخلتنا المتعلقة بدور الدراسات الأنثروبولوجية الاستعمارية في تفكيك البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري، يجدر بنا الإشارة إلى مجموعة من النقاط الأساسية التي تمثل أهم النتائج المتوصل إليها ولعل أهمها:

- أن القول بكون الدراسات الأنثروبولوجية قد وظفت لخدمة أهداف استعمارية لا يعني بأي حال من الأحوال نفي الأهداف البريئة لهذه الدراسات، غير أن تزامن ظهورها- الأنثروبولوجيا- كتخصص علمي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع الموجة الاستعمارية التي اجتاحت مناطق واسعة من العالم، إلى جانب طبيعة الدراسة الأنثروبولوجية في حد ذاتها، جعلها تتقاطع والأهداف الاستعمارية، وأضحت بذلك توصف على أنها من العلوم الاستعمارية بامتياز.

- أن الدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية عن المجتمع الجزائري لم تنجز من قبل متخصصين بل أنجز أغلبها من قبل ضباط عسكريين وبعض الإداريين المنتمين للمؤسسة العسكرية، وغلب عليها الطابع الإثنوغرافي- الوصفي-.

- أن اسهامات الدراسات الأنثروبولوجية الاستعمارية لم تقف عند حدود رمي المجتمع الجزائري بالتوحش، وإثارة النزعة العرقية وعزل المجتمع الجزائري عن التدين الصحيح، بل امتدت إلى نتائج أخرى لا تقل خطورة عنها.

- برغم سلبيات الدراسات الأنثروبولوجية الاستعمارية ونتائجها الهدامة على المجتمع الجزائري، فإنها أسهمت بقسط لا يستهان به في حفظ معطيات ومعلومات لا يستهان بها في ما يخص الموروث الثقافي والاجتماعي للمجتمع الجزائري.

قائمـــة المراجـــع

1 – بيار إيرني : إثنولوجيا التربية ، ترجمة عدنان الأمين ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، لبنان ، 1992.

2 – جيرار لكلرك : الأنتروبولوجيا و الاستعمار ، ترجمة جورج كتورة ، ط2 المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1990.

3 – فيليب لوكا و جان كلود فاتان : جزائر الأنتروبولوجيين ، ترجمة محمد يحياتن ، بشير بولفراق ، ووردة لبنان، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، 2002 .

4 – معتوق جمال : مسيرة علم الاجتماع في الجزائر ، المجلة الجزائرية للدراسات السوسيولوجية ،جامعة جيجل ، الجزائر ، العدد الأول ، جوان ، 2005 .

5 – مولاي الحاج مراد : مكانة التحقيق الميداني في الدراسات الأنتروبولوجية ، ملتقى، أي مستقبل الأنتروبولوجيا في الجزائر ، تيميمون ص 22 ، 23 ، 24 ، نوفمبر1999 ، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية ، وهران ، الجزائر ، 2002 .

6– ناصر الدين سعيدوني: المسألة البربرية في الجزائر– دراسة للحدود الإثنية للمسألة المغاربية– ، مجلة عالم الفكر، مجلد 32، ع4، المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت، أبريل– يوليو 2004،

7 - AUZIAS Jean – Marie : l'anthropologie contemporaine , édition PUF , Paris , France 1976

8 - LOMBARD Jaques : introduction à l'ethnologie , édition ARMAMD Paris France 1999

9 - BONTE Pierre et IZARD Michel : dictionnaire de l'ethnologie et , PUF , Paris , France , 2002 . de l'anthropologie , 2ème édition

10- BERTAU jules: comment larmée découvrit les arabes et leurs < pittoresques> coutumes, revue Manière de voir N°86, édition le Monde diplomatique, France, avril mai, 2006,